إنما أنت أيام

د . محمد توفيق رمضان البوطي

أما بعد فيا أيها المسلمون يقول الله جلَّ شأنه في كتابه الكريم: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ۞ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ ويقول سبحانه: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ ويقول الله سبحانه في كتابه مخاطباً من أشقوا أنفسهم في الغفلة عن حياتهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ ويقول سبحانه في كتابه الكريم: ﴿وَالْعَصْرِ۞إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ وإذا تأملنا في كتاب الله وجدنا أن الله عزَّ وجل أقسم بالزمن أو معياره في كثير من الآيات ﴿ وَالضُّحَى۞ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى۞ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ ﴿ وَالْفَجْرِ۞ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا۞ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ كل ذلك إشارات إلى أهمية الوقت وخطورة العمر، روى مسلم والترمذي عن أنس ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر» تجده مولّياً، هرم منه الجسم وضعفت منه البنية وتكاثرت السنون وهمومها عليه إلا أن الأمل في الحياة والحرص على مقوماتها وعلى الدنيا لايزال فيه فتياً متوقداً متوثباً، أخرج الإمام أحمد والبيهقي وابن أبي الدنيا عن أبي الدرداء وعن الحسن البصري: (ابن آدم إنما أنت أيام فكلما ذهب يوم نقص بعضك، ابن آدم إنك لم تزل في هدم عمرك مذ ولدتك أمك)، كل يوم يمضي عليك من بعد ولادتك يبعدك عن يوم ولادتك ويدنيك إلى يوم أجلك.

أيها المسلمون عام شمسي مضى من حياتنا، كما مضى قبل فترة عام قمري هجري من حياتنا، كلاهما مؤشر إلى أن العمر ماض، وأن أقدارنا تمضي بنا إلى حتوفنا وآجالنا، فلا يغر بطيب العيش أحد، كما لا ينبغي أن ييأس لمصابٍ أصاب أحدنا أحد، حياتنا هنا دار عمل، وفرصة لشراء السعادة أو للسقوط في أودية الشقاء، ألم يقل لنا ربنا الذي خلقنا: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ وهل نال البقاء في الدنيا إنسان مهما بلغ شأنه قوة او غنى أو جاهاً، مسكينٌ الإنسان،

ينسى حقيقته ويغتر بشيء من الصحة أو المال أو الجاه بينما يمضي على قدميه إلى قبره، ليله يسلمه إلى نهاره ونهاره يسلمه إلى ليله، ليقول له نقص من حياتك يوم واقتربته إلى أجلك فإنما أنت أيام، وأنت أمانة مستردة ولابد يوماً أن ترد الودائع، وما المال والأهلون إلا ودائع ولابد يوماً أن ترد الودائع، عام مضى فماذا يعني ذلك بالنسبة لنا ؟ أيها المسلمون جرى غير المسلمين على إقامة احتفالات عظيمة جداً يحاولون فيها أن يختصروا الحياة فيعتصروا كل لذائذها في تلك الليلة، ذلك لأنهم يعتقدون أو يخيل إليهم أن حياتهم هي هذه الحياة الدنيا فقط، وأنها الفرصة الوحيدة وأن الموت نهاية أبدية، هذا التوهم سببه عدم الإيمان، أمَّا أن يسير المؤمنون خلفهم كما أخبر النبي ﷺ «لتتبعن سَنن من قبلَكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضبٍ لدخلتموه» إنه أمر عجيب يدل على أن علينا أن نراجع قلوبنا ونتحسس موقع الإيمان من قلوبنا وأن نعود إلى أنفسنا ونراجع ذواتنا. نعم إن فرصة من فرص الحياة قد مضت ولا ندري كم بقي منها، نحن نعلم جيداً كم مضى من حياتنا، ولكن من منا يعلم كم بقي له من حياته، يوشك أن يغيب المرء عن المجلس فلا يعود إليه، ويوشك أن ينام ولا يستيقظ، بينما هم يحلم بأيام مديدة، كما قال رسول الله ﷺعندما رسم خطاً وقال: «هذا ابن آدم وهذا أمله، ثم وضع خطاً يقتطع هذا الخط وقال: وهذا أجله » أمَلُك متطلعٌ إلى البعيد، لكن أجلك لا تدري متى يأتيك، جدير بالعاقل أن يكون دائما على استعداد للقاء ربه، وأن يكون على حالة من الحذر فلا يأتينه الموت وهو معرض. إن أعظم غنيمة تغتنمها بعد هذه الحياة بكل ما فيها من لذائذ أو مصائب؛ من مرارة أو حلاوة هو حسن الخاتمة، وإنما تحسن خاتمة من حسنت ساعات يومه؛ وكان دائماً على استعداد للقاء ربه، ذاك هو الذي يمكن أن يفوز، أما من سوّف واستمهل **فسوف** لن تكون إلا بلاءً عليه، ترى هذه الفرصة هل ملأناها بالخير أم ملأناها بالمعاصي والغفلة، أيامنا التي نعيشها نحن مسؤولون عنها، ولابد من موقف يسألنا الله تبارك وتعالى عنها ألم يقل النبي ﷺ: « لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع، عن عمره فيمَ أفناه، وعن جسده فيمَ أبلاه، وعن علمه هل عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وأين أنفقه» عن عمرك هذه الأمانة هي وعاء الأمانات كلها، هي الكنز الذي لا يساويه كنز، بعض الناس يقول الوقت من الذهب، الوقت هو أنت، أنت أعظم من الذهب، أنت مستعد أن تبذل كل الذهب الذي بين يديك تبذله من أجل عافيتك، بل من أجل نعمة متعك الله عزَّ وجل بها، الوقت هو أنت فلا تقتل نفسك، فلا تقتل حياتك الدنيوية فيؤدي ذلك بك إلى أن تخسر حياتك الأخروية.

وبعد أيها المسلمون، إن التاجر في نهاية العام يقوم بجرد سنوي لعمله التجاري، هذا شأن معروف، وهذا شأن كل عاقل، وكل ذي صنعة أو مهنة أو كل عاقل ينظر إلى نهاية المرحلة التي هو فيها، وقد قسم ربنا تبارك وتعالى مراحل حياتنا إلى أيام فأسابيع فأشهر فسنوات، فاليوم يذكرك بنهايتك، ما ينبغي أن تنتظر السنة بل فانظر للشمس كيف تغرب كذلك أنت سوف تغرب، أرأيت كيف ينتهي اليوم، كذلك ستنتهي أنت، أعد للنهاية عدتها ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ ولذلك يقول النبي ﷺ «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» ربنا تبارك وتعالى أعلمنا بأن له صفتين لا تفترقان ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ﴾ ينبغي أن نعيش بين هاتين الصفتين، أنه غفور لمن أقبل إلى مغفرة الله ورحمته، وأن عذابه أليم لمن أعرض عن عذاب الله ومغفرته، عقب سيدنا عمر ﷺ على هذا الحديث فقال: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وإنما يخف العذاب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا) ترى هل حاسبنا أنفسنا؟! جدير بنا في مساء كل يوم أن نعود فنحاسب أنفسنا عن ذلك اليوم، فإذا مضى الأسبوع عدنا فراجعنا أسبوعنا فإذا مضى الشهر عدنا فراجعنا حساب ذلك الشهر من حياتنا، شهر برمته قد مضى من حياتك؛ وأنت إنما أنت أيام، يود الإنسان في ساعة أجله لو منح يوماً ﴿فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عندئذ يقول المرء ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾ جدير بنا أن لا نكون مثل أولئك الغافلين الذين يبلغ فجورهم أقصاه في ليلة رأس السنة، بل أن نكون مستيقظين للموقف بين يد الله عزَّ وجل، ونراجع حساباتنا، وجدير بكل فرد منا أن لا يثبت على الحال التي هو فيها بل أن يتقدم. وأن يعود إلى نفسه فإذا لم يكن يومه خيراً من أمسه فلا يكونن أقل من أمسه، علينا أن نراجع أنفسنا في مدى إقبالنا على الله وحسن علاقتنا به سبحانه وتعالى.

وبعد، فأتوجه أخيراً إلى أولئك الذين مضى على فتنتهم التي أحرقوا بها بلادهم ودمروا بها وطنهم وقتلوا بها إخوانهم: أما آن لنا أن نستيقظ؟ أما آن لنا أن نرعوي؟ أما آن لنا أن نراجع أنفسنا وندرك أننا مسؤولون غداً يوم القيامة عن كل قطرة دم سفكت في هذا الوطن، وعن كل بيت هدم في هذا الوطن، وعن كل انسان تألم قلبه لفقد حبيب من ابن أو أب أو زوج أو بنت أو أخت، أما آن لنا أن نعود

لرشدنا؟ إن الزمن يمضي بنا إلى ساحة الموقف بين يدي رب السموات والأرض ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ هنالك لن تفيدهم أميركا ولن تفيدهم ألمانيا ولا فرنسا ولن تفيدهم دول الأرض ولا أموالها ولا سلطانها ولا سلاحها، لأن الله سيسألهم عن كل قطرة دم سفكت في هذه البلد، أنا لا أتحدث عن الذين خرجوا، خرجوا وارتموا على أقدام أسيادهم، نريد أن نستيقظ نحن ونتعانق بعد كراهية، ونصطلح بعد خصومة ونعود لنبني حياتنا على أساس من المحبة والتعاون، دُمّر اقتصادكم وانهارت بلادكم وشاعت الخصومة بين أفراد الأسرة الواحدة، أما آن لنا أن نرعوي؟ أما آن لنا أن تستيقظ؟ أما آن لنا أن ننبذ الكراهية ونضع مكانها المحبة، الله تعالى يقول لنا ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾ ما قال لنا: تفرقوا، وقال لنا ﴿ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ ﴾ ما قال لنا: تنازعوا، وقال لنا ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ما قال: أفسدوا بين أخويكم، وإنها لأمانة جميعنا مسؤولون عنها أن نعيد بناء مجتمعنا على أساس من المحبة ، على أساس من الثقة ، على أساس من الصدق ، على أساس من الإخلاص مراقبين الله عزَّ وجل في كل ذلك الذين أوقدوا نار هذه الفتنة كانوا وللأسف أدوات غبية ، أشقوا أنفسهم وأشقوا وطنهم ، و وآن الأوان منذ زمن وكلما مر يوم وآن الأوان منذ زمن وكلما مر يوم ترسخت الحجة علينا أن نعود إلى رشدنا أن نعود إلى صوابنا ، أن نعود إلى حياة الألفة والمحبة والتعاون والتآزر لا أن ندمر أنفسنا وندمر وطننا وندمر حياتنا ، أما آن لنا أن تتعانق منا وتتصافح الأيدي وتعود الألفة والمحبة إلى البيت الواحد والحي الواحد والوطن الواحد والأمة الواحدة ، أسأل الله أن يعيدنا إلى رشدنا وأن يجعل من نهاية هذا العام نهاية آلام ومن بداية العام الجديد بداية أمال تتحقق بسعادة وسؤدد وعزة ورفاهية إن شاء الله تعالى في ظل مرضاة الله تعالى .

نستقبل رحمة الله تبارك وتعالى وإغداقه علينا بسحائب رحمته وبالأمطار التي أكرمنا الله عزَّ وجل بها أن نواجه ذلك كله بالحمد والثناء والشكر على هذا العطاء ، وأن نبسط أكفنا إليه حامدين شاكرين لأن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ، ولكن أيضا هو القائل ﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، إن علينا أن نقابل نعم الله بالشكر والشكر إنما يكون بالإنابة إليه واستعمال نعمته فيما يرضيه لا في ما يسخطه .

خطبة الجمعة 2016/01/01